

التوحيد في العبادة ... إشكالية المفهوم والمصداق -4

إن الطاعة ليست حداً منطقياً للعبادة ، وبمعنى آخر : لا يمكن اعتبار أن الطاعة لوحدها عبادة وإلا لم يبق أحد على وجه الأرض من المسلمين إلا وهو خارج عن الإسلام ، فنحن نطيع آباءنا ، وأمهاتنا وإخواننا الكبار ، وساداتنا ، وكبراءنا ، وحكامنا ، وقاداتنا في العسكر أو الوظائف المختلفة وهذه الطاعة تكون عبادة لهم ، ولكن القرآن لا يفترض هذا فقد أمرنا [طاعة رسوله مقرونة بطاعته كما في آيات عديدة منها :

قوله تعالى: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} [آل عمران: ٣٢]

وقوله تعالى: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَٰمُوهَا إِنَّمَا عِلْمُ رَسُولِنَا الَّذِي لَا يُمْسِكُهُ الْمَوْتُ} [المائدة: ٩٢]

{وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال: ٤٦]

{قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكُمْ مَآثُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقِينَ أَطَاعُوا ثُمَّ لَا تَنْفَعُهُمْ شَيْئاً سِوَا مَا عَصَوْا وَالَّذِينَ آمَنُوا وَأَطَاعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ غَيْرُ الْمُنَافِقِينَ وَالَّذِينَ آمَنُوا لَأُخَوِّذَهُمْ اللَّهُ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [النور: ٥٤]

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنهُ وَاعْتَدُوا لِلْعَذَابِ سَاعَةً لَّيْسَ لَكُمُ اسْمٌ بِهِ تُعْلَمُونَ} [الأنفال: ٢٠]

بل وجاء الأمر من [طاعة الرسول بخصوصه كما في قوله تعالى : {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [النور: ٥٦]

ولم تكن الطاعة لرسول [فقط بل لكل ولي أمر ، ومن هو ولي الأمر ؟

كل بحسبه ، فمن يعتقد أن ولاة الأمر هم الحكام كما يراه إخواننا السنة فإنه يجب طاعتهم ، ومن يراه الأئمة كما هم الشيعة يجب طاعتهم ، وفي كلا الفرضين يجب طاعة غير الرسول ، فهل أن طاعة ولاة الأمر عبادة لهم ؟ كما في قوله تعالى:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء: ٥٩]

وقد جاء في القرآن الكثير من الآيات التي فيها أمر للناس بالتباع أشخاص كما في قصة هارون وطلبه من قومه أن يطيعوه :

وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي} طه: ٩٠

و في قصة عيسى عليه السلام قوله تعالى:

{إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ خُذْ هَذَا الصَّلَافَ وَارْتَدِّهُ إِلَىٰ آلِهِمْ وَاصْلُحْ بَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فُتُورًا ۚ فَوَقَّ السَّادِينَ كَافَرُوا إِلَٰهًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ ۖ إِلَٰهِي ۖ مَرِّجْ عُرْجُكُمْ ۖ فَأَحْكُكُمْ ۖ بَيِّنْكُمْ ۖ فِيمَا كُنْتُمْ ۖ فِيهِ تَخْتَلَفُونَ} ۝ آل عمران: ٥٥

أطيعوا الله وأطيعوا الملك وأطيعوا أئمة الدين

وفى قصة إبراهيم إن أولى الناس به للذين اتبعوه بإطاعته كما فى قوله تعالى :

{إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا الذَّيِّقُ
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيٌّ لِلْمُؤْمِنِينَ} آل عمران: ٦٨ والآيات في ذلك كثيرة .

وقد ورد في مقابل ذلك ما يدل على أن هناك طاعة منهى عنها كطاعة الشيطان كما في قوله تعالى :

{أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} (يس/60-61). لا تعبدوا الشيطان بمعنى لا تطيعوه .

{وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَفَاسَدْتُمْ الشَّيْطَانُ إِيَّاهُ لَا تُطِيعُونَ} [النساء: ٨٣]

وطاعة الكفار والمنافقين كما في قوله تعالى زجراً لنبيه {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} [الأحزاب: ١]

وقوله تعالى : {فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِيعْ مِنْهُمْ أَثِمًا أَوْ كَفُورًا} [الانسان: ٢٤]

وطاعة المخلوق في معصية الخالق ولو كان الأبوين اللذين دعا القرآن إلى برهما :

{وَلَا تَجَاهِدَا الْوَالِدَيْنِ إِذَا قَا تَشْرِكُ بِهِمَا مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِيعُهُمَا وَصَاحِبِهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنْزَلَ إِلَايَ ثُمَّ إِلَايَ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [لقمان: ١٥]

وهناك طاعة لم يرد فيها أمر أو نهى فتكون جائزة وهذا ما تعارف عليه المسلمون ، من طاعة الرئيس والمدير في الدوائر الحكومية في مختلف الوظائف ولا يمكن لأحد ادعاء أن ذلك مما هو خارج الشرعية ، وهذه الطاعة مع أنها لم ترد بصورتها الاجتماعية في القرآن إلا أنه لا قائل بأنها تعدّ عبادة للمطاع من قبل المطيع .

ومعنى طاعة [] أن تمتثل أوامر ونواهيه، فهل أن جميع المسلمين السنة أو الشيعة اليوم يطيعون كل أوامر [] ونواهيه بحيث يصدق عليهم أنهم عبيد [] أو أن كثيراً منهم يطيعون أشخاصاً وأفراداً علاوة على الشيطان، لذا تجد الكثير من المسلمين اليوم ومن جميع الطوائف يسرحون ويرتعون في المهالك والملذات وهؤلاء خرجوا قطعاً عن طاعة [] ، فهل نقول عنهم أنهم عبدة لشهواتهم كما قال تعالى {أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهِهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا} [الفرقان: ٢٣] وقوله أيضاً {أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهِهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ

عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَيْهِ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ لَإِيَّاهُ بَصَرَهُ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ
مِنْ بَعْدِ اللَّاسَةِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ { الجاثية: ٢٣

والخلاصة : أن الطاعة لوحدها لا تعد حداً منطقياً للعبادة وإلا لو اعتبرناها كذلك فإن الجميع لن
يكون عابداً .